قصة مصرية

مقـــــدور

بقلم القصصي الكبير الأستاذ محمود تيمور

(من كتاب « الوثبة الأولى » ـ تحت الطبع ـ)

— ١ —

ظهر الشيخ سيد على السكة الزراعية ، يمشى متمهلا وهو يلهث ، رازحاً تحت ثقل جسمه المائل ؛ يحرك إحدى يديه إلى الأمام مستعيناً بها فى السير كما يستعين النوتى بمجذاف قاربه ، بينما يده الأخرى تقبض على طرف (زكيبة) ملقاة على ظهره ، بها ما يجود عليه المحسنون من طعام ، وكان جلبابه القذر ـ كسوته الوحيدة التى لا يملك سواها على جسده ـ يمتلىء بهواء الريف القوى فيزيده ضخامة على ضخامته ، وربما علا وهبط على جسمه فكشف للرائى سيقاناً مشققة كسيقان الفيل .

واتجه نحو القناة التى تستمد مياهها من الساقية ، وهبط عليها فى المكان المعد لسقى المواشى ، وأخذ يرتوى بشره كما يرتوى الحيوان العطشان .

وترك عم خضر الساقية ـ حيث كان منشغلا بمراقبة الثور ـ واتجه نحو الشيخ سيد وأمسك بيده وقبلها ، ثم قال له :

ـ ادع لى يا شيخ سيد . ادع لى لينتحها الله فى وجهى ، ويشفى أم عبد السلام زوجتى المسكينة .

فأجاب الشيخ سيد بصوت غليظ غير واضح :

ـ يلعن أبوك انت وهى .

فابتسم البستانى ، وأخذ يد الشيخ سيد فقبلها مرة أخرى وهو يقول له :

ـ ربنا يسمع منك !

ثم تركه وعاد إلى الساقية ؛ وكان الرجل قد تمدد بجوار القناة متوسداً إحدى ذراعيه ، واستعد للنوم .

— ٢ —

كان الشيخ سيد ـ فى طوره الأول ـ عميد أسرته ؛ وكان معروفاً برجاحة عقله وطيبة قلبه ؛ محترم الجانب ، محبوباً من الجميع ؛ وكان يعيش فى رخاء ، يملك هو وأخواه عشرة أفدنة ؛ يشتركون فى زرعها وتقسيم محصولها عليهم بالسواء ؛ وكانوا يسكنون كلهم فى دار أبيهم ؛ وهى دار ريفية رحبة وسعتهم بزوجاتهم وأولادهم ومواشيهم .

وعاش الرجل هكذا معززاً مكرماً حتى أشرف على الخمسين ، وحدث يوماً بينما كان عائداً بحماره إلى داره ، إذ عثر الحمار فى الطريق فأوقعه على الأرض ، وأصاب رأسه حجر غليظ أسال منه الدم غزيراً ، وحمل على أثر ذلك إلى منزله ، وبقى طريح الفراش عدة أسابيع بحمى شديدة ، غائباً عن صوابه ؛ ولما التأم الجرح وزالت الحمى ، أصبح سيد أبو علام غيره بالأمس ، رجلا فاقد الذاكرة ممتوهاً ، ولم يعد يصلح لعمل ما من أعمال الفلاحة ، فتركه أخواه فى فناء الدار يقضى وقته مع الأطفال يشاركهم لعبهم ؛ ولما طال مرضه ، وعز شفاؤه ، داخل أخويه طمع الحياة ، وفكرا فى التخلص منه ، ثم قر رأيهما على طرده هو وعائلته ، وحرمانهم جميعاً من ثروتهم ؛ وكان للرجل ذرية عديدة ، ولكن لم يكن بينها فرد يقوى على الدفاع عن حقوقهم المسلوبة ، وخرجت العائلة مطرودة من دارها والشيخ سيد بينهم كأنه دابة من دوابهم ، أو متاع من أمتعتهم ؛ واستقر بهم المقام فى دار مهدمة صغيرة من دور العزب ، عاشوا فيها عيشة البؤس ، يكسبون مكسباً ضئيلا لا يكاد يقوم بأودهم .

واستمر الشيخ سيد على هدوئه وخموله لا يفارق الدار ، يمضى وقته إما مع الأطفال ، أو نائماً بجوار الحائط ، لا يعرف ليله من نهاره ، وغلظ جسمه وترهل ، وتهدل شعره ، واشتبك بعضه ببعض ، وتلبك من الأوساخ ، فبشع منظره ، واحتجبت ملامحه القديمة — ملامح الرجل الذكى العامل ذى القوة والبأس — خلف ذلك القناع الوحشى ذى العينين الشاردتين المريبتين — كما يحتجب الضوء اللامع خلف الزجاج المترب القذر .

وكانت للشيخ سيد أم ضريرة كانت تزوره فى الخفاء — من غير علم أخويه — وتحمل إليه الهدايا من طعام وكساء ، فكان إذا رآها هلل بها تهليل الأطفال — وهو يجهل من هى — ويأخذ منها الحلوى والملابس بفرح وسذاجة ، أما هى فكانت تجلسه بجسمه الغليظ على رجلها الواهية ، وتضمه إلى صدرها بحنو وشغف ، تطعمه بيدها الحلوى ، وتروى له حكايات الغول والشاطر محمد ، وإذا حل عليه النوم وسدته حجرها ، وغنت له أغانى الطفولة الجميلة .

— ٣ —

وماتت زوجة الشيخ سيد ، تاركة له أطفالا دون سن الرشد ، فعز على أمه العجوز أن ترى هذه العائلة بلا عائل ولا مدبر ؛ فلحقت بها ، واقتسمت معها مضض العيش ، تعمل جهدها على تفريج ضيقها .

وكر الزمن ، وكبر الأطفال إلى شبان وفتيات ، ووجد الشبان الرزق محدوداً فى تلك الجهة ، فرحلوا متفرقين إلى جهات عديدة يناضلون فى ميدان الحياة الواسع ؛ أما الفتيات ، فقبعن فى الدار ينتظرن الزواج ، ولكن الزواج كان يمر عليهن ساخراً لا يمد لهن يداً ، وساءت أحوال العائلة يوماً بعد يوم — على أثر رحيل الأخوة الذكور الذين كانوا يعولونها — فأخذت الأم

الفريرة تفكر فى الأمر ، وقر رأيها أخيراً على الخروج بابنها المعتوه إلى الأسواق للاستجداء، فأم ضريرة وابن أبله مسكين يحركان الشفقة ، ويستنديان الأكف للاحسان .

وخرجت الأم فى اليوم التالى تجر ابنها جراً لعدم رغبته فى الخروج ، وذهبت به إلى السوق ، حيث مكثت وإياه اليوم كله يستجديان ، وعادا إلى الدار ومعهما بضعة نقود وشىء يؤكل .

وتكرر الخروج كل يوم ، واعتاد الشيخ سيد أن يتجول بمفرده فى البلدة تاركا أمه على رأس الطريق ؛ فكان يطوف على الدكاكين والقهاوى يكلم نفسه ويضحك ويشتم ويحرك يده حركات غريبة ، ثم يعود إلى أمه وفى زكيبته شىء ينتفع به .

ـ ٤ ـ

ودخل الشيخ سيد مرة دكان « أبى شوشة » الجزار وبادره بقوله :

ـ لقد قلت لك من زمن يا حمار إن الخير كثير . أهو واحد ... اثنين ... ثلاثه ... الأردب القمح فى الدوار ... والماء بالراحة فى الترع ... واحد ... اثنين ... ثلاثة ... ربنا يلعن جدودك ابن كلب صحيح ...

ـ أنا ابن كلب !.. وهل فعلت شيئا أستحق عليه هذا ؟

ـ فعلت شيئاً ؟.. أبداً ... الخير كثير يا ولد ، الخير كثير!.

فابتسم ثانيا أبو شوشة ووضع فى زكيبة الرجل قطعة من اللحم ، وخرج الشيخ سيد وهو يضحك ويكرر ما قاله للجزار ، وجلس أبو شوشة فى الدكان ، وقد اعتمد بذقنه على يديه ، وأخذ يفكر فى ما قاله له الرجل ، لقد عد أمامه : واحد اثنين ثلاثه ، ثم كرر جملته « الخير كثير » فما معنى ذلك ؟ ألا يقصد قضية الأطيان ، إن الجلسة بعد ثلاثة أيام .

ومضت الثلاثة أيام ، وربح أبو شوشة القضية ـ التى ظلت معلقة فى المحاكم سنين طويلة ـ وكان ابتهاجه بذلك عظيما ، فأقام ليلة أنس كليلة الأفراح ، وزع فيها الصدقات ، وغمر الشيخ سيد بمختلف الهدايا .

وكان انتصاراً كبيراً للشيخ سيد تناقله الناس وأذاعوه ؛ فاشتهر صيته ، وقصده طلاب الحاجات من كل صوب يستوضحونه ما خفى من أمرهم ، فكان يخبط معهم خبط عشواء ، وساعده الحظ وأفلح فى هذيانه ، فهابه الجميع وأجلوه ، وأغدقوا عليه الهدايا والأموال .

ـ ٥ ـ

كان رفعت افندى ناظراً للزراعة التى يسكن عزبتها الشيخ سيد ، وكان رجلا أحمق متكبراً ، له زوجتان : الأولى امرأة ناهزت الخامسة والأربعين ، وتسكن داره التى فى العزبة ،

بينما الثانية فتاة تبلغ الثامنة عشرة وتسكن داره البعيدة التى فى البلدة ، وكان يميل إلى الثانية ويفضلها على الأولى فأوغر بذلك صدر الأخيرة .

ففى يوم من الأيام كان رفعت أفندى جالسا على شاطىء الترعة أمام العزبة مستظلا بشجرة الجميز الكبيرة ، يتناول طعام الغداء بمفرده ، ويقوم بخدمته خادمه الصغير ، كان يأكل وهو مقطب الوجه يزجر الخادم لأقل هفوة ، مفيحا الأكل وصانعته ، وجاء الشيخ سيد فى ذلك الوقت يتهادى فى جلبابه الفضفاض المنتفخ بالهواء ، يجذف بيده ويلهث ، وجلس بالقرب من رفعت أفندى وأخذ يحدق فى طعامه وهو يتكلم كلامه غير المفهوم ، فلم يأبه به رفعت أفندى وتابع أكله وهو يسب ويشتم بلا حساب ، فزحف الشيخ سيد إليه وأخذ يحرك له يديه ويصرخ فى وجهه ، فرمقه الأفندى بنظرة شذراء ، مزمجراً ، وعيل صبر الشيخ سيد فمد يده واختطف لقمة من الصينية أخذ يلتهمها وهو يضحك ملء شدقيه ، فاستشاط رفعت أفندى غضباً ، وقام ورفع الشيخ سيد محاولا إيقاعه فلم يتزحزح الأخير عن مكانه قيد أنملة ، وحسب أن الناظر يمازحه فمد إليه يده ودفعه ببساطة فانقلب الرجل على ظهره فى الوحل وهو يهدر كالثور الهائج ، والتف حولها جمهور غفير من سكان العزبة وضجوا بالضحك والسخرية عند ما شاهدوا الناظر يتخبط فى الطين ، وسرعان ما احتل الشيخ سيد مكان رفعت أفندى على المائدة وأخذ يأكل بشراهة وغبطة ، والقوم يهللون ويصفقون ، وقام الناظر وهو ينظف نفسه ، يلعن ويشتم ويهدد ، وقصد داره ، ورهط كبير من الأطفال يجرون خلفه يزفونه بسخرية ومجون ؛ أما الشيخ سيد فبعد أن أتى على الأكل كله تملى وتثاءب وتمدد بجوار الترعة متوسداً ذكيبته ونام نوما عميقا مصحوبا بغطيط مزعج .

دخل رفعت أفندى منزله وهو يهدد ويزوم ، وبعد قليل قامت ضجة فى الدار مصحوبة بتكسير أثاث ، ثم هدأت وخيم على المكان سكون عميق .

وبعد آذان العصر بقليل سمع من منزل الناظر صراخ وعويل وندب .

واجتمع الناس حول الدار ، وظهر الشيخ حمزة خطيب الجامع — صاحب اللحية الحمراء والوجه المجدور — على عتبة الباب وقال بصوته الجهورى :

— يا عباد الله ، لقد هلك الظالم ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

فهمهم الجميع يطلبون لأنفسهم الرحمة ، وأخذ الشيخ حمزة يشرح للناس كرامة الشيخ سيد فى هلاك الناظر الذى لم يراع مع الشيخ أصول اللياقة والكرم ، وجعل يسهب لهم فى هذا القول وهو يمجد لهم الشيخ سيد ويثنى على أعماله ويبرهن لهم بمختلف البراهين أنه ولى كبير من أولياء الله ، قادر على إهلاك الأشرار والبر بالصالحين الأخيار .

وكان لهذه الحادثة وقع كبير فى نفوس الحاضرين ، فأخذوا ينشرونها بين الناس فى حماسة ويقين .

— ٦ —

وكان للشيخ سيد عدة بنات تجاوزن سن الزواج . وحدث أن شاباً من عائلة معروفة فى البلدة شاهد كبراهن وهى تملأ الجرة من الترعة ، فأعجبته وتزوجها ، وكان له زوجتان غيرها لم تلدا له ما كان راغباً فيه من ذرية ؛ ولم يمض على زواجه من ابنة الشيخ سيد خمسة أشهر حتى عين عمدة للناحية ، ثم بعد أربعة أشهر أخرى ولدت له زوجته الجديدة صبيين توأمين ؛ وكانت مباغتة له لم يكن يتوقعها ، فعد زواجه الجديد كرامة عظيمة من الشيخ سيد ، وانتشرت هذه الحادثة كسابقتها ، فأقبل وجهاء البلدة على منزل الشيخ سيد يطلبون بناته للزواج .

وعاش الرجل وأمه فى دارهما وحيدين ، ولكنهما عاشا فى بحبوحة من العيش . وآثرت الأم الاحتفاظ بكوخها ، ورفضت أن تنتقل بابنها إلى دار من دور أزواج حفيداتها إذ كانت مستبركة به ، وكانت لا تخرج منه إلا لتملأ الجرة من الترعة أو لتجلس على عتبة الباب تستنشق الهواء فى هدوء وغبطة . أما الشيخ سيد فكان يخرج صباحاً ولا يعود إلى الدار إلا فى المساء وهو محمل بأفضال الحسنين . كان يزور مختلف القرى ويجوب الأسواق ، يأكل حيث يريد ويسترخ حيث يرغب ، محترم الجانب ، مهاباً من الجميع .

هكذا عاش الشيخ سيد وأمه سبع سنين كاملة .

— ٧ —

وبدأ جنون الرجل يتحول من جنون هادىء لطيف إلى جنون هائج خطر .

كان يدخل الأسواق كالزوبعة ، يخطف ويبعثر كل ما تصل إليه يده ، ويقصد إلى القرى فيمسك بالطيور فيخنقها ، وكثيراً ما ضرب الناس بلا سبب .

وأمسك مرة بالشيخ حمزة خطيب الجامع الوقور ، وأخذ يقتلع شعر لحيته الشقراء حتى كاد يفنيها عن آخرها ، ثم وكل الشيخ فى بغلته وكلة قوية كادت تقضى على حياته .

وبدأ الناس يتذمرون ، ولاحظوا أن شرور الرجل تتزايد وأنهم أصبحوا غير آمنين على أرواحهم وأرواح عائلاتهم . وأخذ الشيخ حمزة يهمس فى الآذان ، وكانت كلمة « الشيطان » تردد على الأفواه .

وحدث يوماً أن شوهد الشيخ سيد يجرى صوب الساقية وبين يديه طفل يبلغ العامين ، يعضه بأسنانه كأنه وحش منقض على فريسته ، وصراخ الطفل يمزق الفضاء ، وكان يجرى خلف الشيخ سيد بعض رجال من الضيعة يصيحون عليه ليترك لهم الطفل . ولكن الشيخ سيد كان منهمكا فى عمله غير آبه بصياح أحد . وكان قد اقترب من الساقية ، ولمعت فى ذهنه فكرة مريعة أراد أن ينفذها فى الحال ؛ ولكن والد الطفل لحق به وانتزع الطفل من بين يديه .

وكانت أم الطفل بالقرب من زوجها ، فأخذت ولدها فى لهفة وجزع وهى تبكى وتولول ، ثم عادت به إلى المنزل لتضمد جراحه وتعتنى بشأنه . أما الزوج فبعد أن سلم الطفل إلى زوجته ، عاد إلى الشيخ سيد ثائراً ، لا يستطيع ضبط نفسه . والتحمت بين الرجلين معركة هائلة انتهت بفوز حسن سلام والد الطفل ، فترك خصمه بعد أن كال له الضرب ألواناً ؛ وقام الشيخ سيد وهو يبكى كالأطفال ، يئن ويتوجع ويجر نفسه فى إعياء ، عائداً إلى منزله .

أما حسن سلام فبادر بالرجوع إلى داره ليطمئن على طفله فوجده نائماً على حجر أمه نوماً هادئاً ، فانتحى ركناً من أركان الدار وجلس يستعرض فى ذهنه ما وقع له ؛ وكان يسمع بين فترة وأخرى خوار الجاموسة وهى فى ذربتها تطلب العلف ، واعتراه وجوم غريب ودب فى قلبه الخوف ، وخشى أن يكون مصيره كمصير ناظر الزراعة ، وبدأ يلوم نفسه على تسرعه فى معاقبة خصمه ، وكان الأجدر به أن يتركه وشأنه بعد خلاص ابنه منه ، وازدادت مخاوفه وكثرت هواجسه واعتقد أنه لن تمر الليلة دون أن يقع له مكروه ، وشعر باضطراب تنفسه ، واختلطت فى ذهنه المشاهد المزعجة ، فرأى الشيخ سيد يعزم تعازيم السحرية ، وشاهد أشباح المردة من الشياطين ترقص أمام عينيه وتندلع من فمها ألسنة النار ، وبيدها الهراوات الثقيلة تلوح بها فى وجهه ؛ وأحس بأنفاس حارة تهب عليه ، وشعر باختناق شديد ، فصرخ مستنجداً وهو يمزق ملابسه :

ـ خلصونى منه . . . نجونى من الشياطين . . . يريدون قتلى . . . إنهم يهجمون على . . .

فقامت إليه زوجته مضطربة ، وسألته ما به ؟ فأمسك بها وهو يشير لها إلى شياطينه ويكرر لها ما قاله قبلا ؛ فخرجت المرأة من الدار تولول وتقرع بيدها على صدرها ، فهرع إليها جماعة من الجيران ، يتقدمهم عم مبارك أكبر عجائز الحى سناً ، وسأل عما حدث فأخبرته الزوجة بالأمر ، فتنهد الرجل وقال بصوت حزين « إنا لله وإنا إليه راجعون » ودخل الدار بعكازته الطويلة يسير مطأطئ الرأس ، يتمتم بالفاتحة على روح حسن سلام ، فلما رآه الأخير زحف إليه وأمسك يده بشدة وهو يقول له :

ـ سأموت يا عم مبارك ، سأموت . فأجابه عم مبارك وهو يربت على رأسه :

ـ لا يستطيع أحد أن يرد قضاء الله يا ولدى !

فأخذ حسن سلام يبكى بمرارة وهو يلتصق بعم مبارك كأنه يريد أن يرد عنه غائلة الموت.

وبدأ عم مبارك يقرأ على رأس الرجل الآيات القرآنية التى يتلوها عادة على رأس الأموات ، فتخاذلت قوى حسن سلام ، وارتمى على صدر الشيخ فاقد الوعى .

ودخل الدار فى تلك اللحظة « أبو حجازى » فسأل من حوله قائلا :

ـ ماذا جرى يا جماعة ؟ فأجابه عم مبارك على الفور :

ـ حسن سلام تميش إنت يابو حجازى .

فتقدم أبو حجازى من حسن سلام وفحصه ملياً ثم قال وكله ثقة بنفسه :

ـ كلام فارغ ، الراجل فيه الروح مثلنا ، هاتوا يا جماعة قلة الماء.

فأسرعت الزوجة « بالقلة » وتناولها أبو حجازى وأخذ يرش الماء على وجه حسن سلام ، ثم جعل يدعك يديه ورجليه بشدة حتى استفاق الرجل وفتح عينيه وهو يقول :

ـ أنا فين يا جماعة ؟ فأجابه أبو حجازى ضاحكا :

ـ إنت فى دارك يا حسن ـ شد حيلك يا أخى !

ورنت فى أرجاء الدار « زغاريد » الزوجة ، واستبشر الناس فرحين بنجاة حسن سلام ، وسرعان ما انقلب المأتم إلى عرس ، وصرخ أبو حجازى على الزوجة قائلا :

ـ عاوزين نشرب الشربات « يابت » حلاوة قيام حسن سلام بالسلامة . يلله بلى السكر واعصرى اللمون .

وخرج عم مبارك مستاءاً وهو يتمتم بكلام غير مفهوم . وتنفس الناس الصعداء بعد هذا الانتصار الحاسم الذى ناله حسن سلام على الشيخ سيد فلم يعودوا يخشون شره ، وكانوا يمرون بداره يصيحون متوعدين شاتمين ، فرأت الأم الضريرة أن تحجز ابنها خوفا عليه من غضب الناس ، وكانت تخرج خلسة وتقفل الباب خلفها لتأتى له بالطعام والشراب ، وهدأت العاصفة نوعا ، ولكن الشيخ سيد لم تكن ترق فى عينيه حياة المسجونين ، فكان يحاول فتح الباب ليخرج ، ثم يرتد خائبا وهو يصرخ ويبكى ، يضرب رأسه فى الحائط حتى يدميه .

وحدث مرة أن استطاع الافلات من سجنه ، فذهب توآ إلى سوق البلدة ، وبدأ ينهب ويبعثر ما تصل إليه يده ، ولكن الناس تجمهرت عليه وأقصته عن السوق بعد ضربه ، وخرج الرجل من السوق فزعا كالفريسة الوحشية التى يطاردها الصيادون ، ورغب فى العودة إلى داره فاستقبله جمهور من فلاحى الضيعة وطاردوه بالطوب حتى وصلوه إلى البيت .

ومنذ ذلك اليوم والشيخ سيد لا يكاد يفلت من داره حتى يعود إليه منحنا بالضرب ؛ وبالغت أمه فى الاحتفاظ به فلم يستطع الهرب من سجنه ، واقتصر على الصراخ والعويل يملأ بهما جو الغرفة ، وسدت أبواب الرزق فى وجه « الأم » وتنكر لها جميع الناس حتى حفيداتها ، فكانت تجلس أمام باب بيتها تطلب الاحسان والناس يمرون بها ولا يقربونها وهم يستعينون بالله من شر الساحرة الماكرة .

ولما يئست المرأة من معونة أحد اعتكفت فى ركن من أركان الدار مع ابنها منتظرة بصبر واستسلام قضاء الله ، واشتد بها الضعف فتمددت على الأرض بهلاهيلها تردد أنفاسها فى غير انتظام ولا استقرار ، وقد تضاءل جسمها وجف ، وجحظت عيناها غير المبصرتين كأنهما تبحثان فى الظلام عن شىء يؤكل ؛ أما الشيخ سيد فكان يدور فى الحجرة ثائراً وهو يقضم الطوب ، فاذا ماناله التعب جلس بجوار أمه يبكى فتقبله وتلاطفه ، محاولة جهد استطاعتها أن توهمه بأن الطعام لم ينضج بعد.

— ٨ —

وحدث أن استطاع الشيخ سيد أن يفلت من سجنه ، وكان الوقت ظهراً ، والشمس على أشدها ، والسكون يسود العزبة ، والمكان قفر ، والهواء خمل ، وكانت جميع الدور مقفلة ، خرج الرجل هائجاً كالحيوان الجائع يجرى هنا وهناك فى حيرة وارتباك ؛ وفتح باب أحد الدور وخرجت منه امرأة تحمل على رأسها قصعة من الطعام ، ذاهبة بها إلى زوجها فى الغيط ، وكان يسير بجوارها طفلها الصغير ، وشم الشيخ سيد رائحة الأكل فاستجمع قوته وانطلق يعدو نحو المرأة ، وكان يتعثر فيقع على الأرض ثم يقوم يعدو وراءها ليلحقها ، ورأته المرأة ففزعت فزعاً كبيراً ، واختطفت طفلها وحملته بين يديها وأرادت أن تعدو خلفها فواها ، ولحقها الشيخ سيد وأمسك بها فتعثرت فى أذيالها على الأرض ووقعت القصعة وانتثر الطعام على الأرض ، ثم جعلت تصيح مستنجدة ، أما الشيخ سيد فهجم على الطعام الملوث بالتراب وأخذ يحشو به فمه .

وهبت فى جو العزبة عاصفة هوجاء من الصوات زادها تألب الكلاب على النباح ، وسرعان ما انتشر بين الجميع أن الشيخ سيد منقض على طفل يأكله ، فجن جنون الناس ، وجاء الرجال على عجل بفئاسهم إلى مكان الحادثة ، وطاحوا بالشيخ سيد يضربونه بلا حساب .

وأخيراً صاح فيهم صائح : كفى أيها الاخوان وارفعوا أيديكم .

فكفوا عن الضرب وجعلوا يجففون عرقهم بأكمام جلابيبهم ، وتقدم أحدهم وقلب الرجل بين يديه ثم تمتم متمتماً ، والتفت إلى إخوانه فأقبلوا يقلبون الرجل معه ، وانتشرت همهمة بين الجميع عقبها صمت ثقيل .

وظهر الشيخ حمزة وصاح فى الجمع قائلا : ما لكم واجمين كالأصنام ، هيا للعمل .

وتقدم أمامهم يوسع الطريق ، فشمر الرجال عن سواعدهم الممتدلة وجروا الشيخ سيد كما يجرون ثوراً ميتاً ، والأطفال خلفهم يرقصون ويهللون ، وأخيراً وقف الشيخ حمزة وقال : هنا . ... وحفروا له حفرة متسعة عميقة ، ورموا بالجثة فيها ، فسمع لها دوى غليظ عنيف ، ثم هالوا التراب عليها ، وعاد كل إلى عمله كأنه لم يقع شىء .

وما كاد طريق العزبة يقفر من المارة حتى ظهر على عتبة الشيخ سيد — شبح يزحف ويجر نفسه فى ضعف وتهالك ، واتجه نحو مكان الجريمة وأخذ يتحسس التراب الممزوج بالدم ، يشمه تارة ويفحصه بين أصابعه تارة أخرى ، وجسمه كله يهتز مرتجفا بوبغتة صاح باختناق وجعل يلطم وجهه ، وهو يقول :

— آه يا ابنى . . . قتلوك يا ابنى . . . قتلوك ياحبيبى يا ابنى . . . وارتمى على وجهه ينهنه كالأطفال .

« محمود تيمور »